مع الباحث والمفكر الإسلامي التجاني بولعوالي

الفائز بجائزة أفضل عمل صحفي في مجلة الرابطة

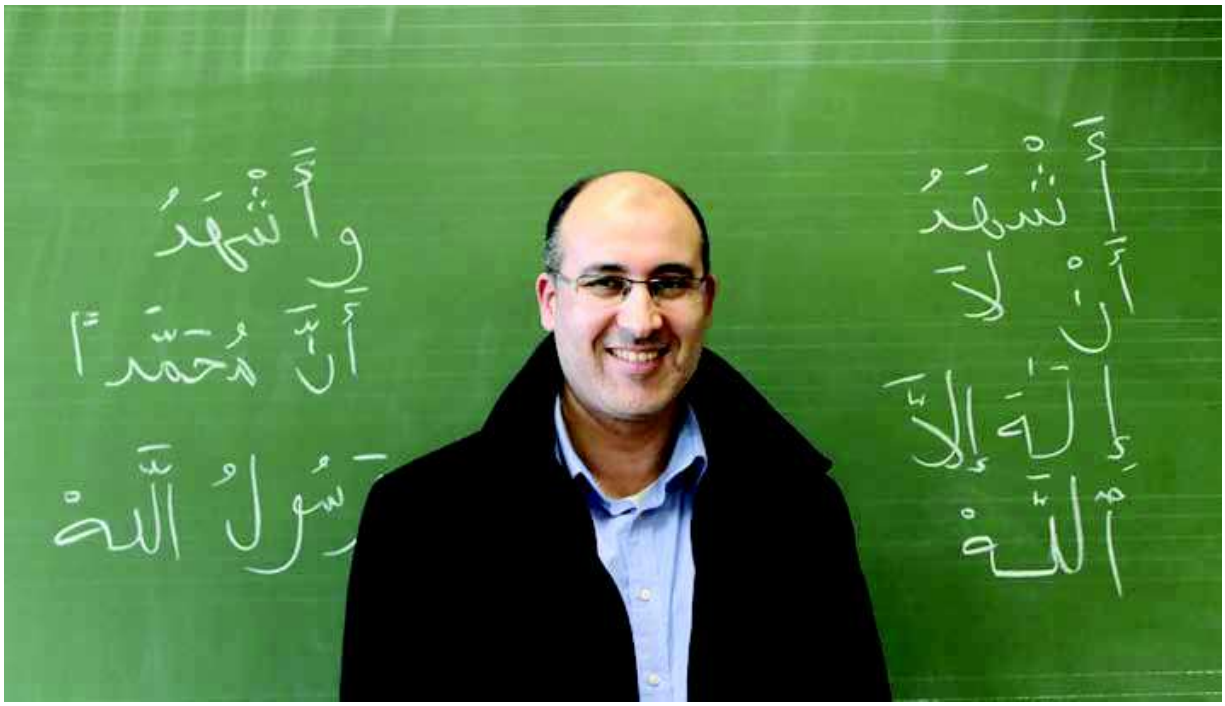

حوار: توفيق محمد نصر الله

• من هو التجاني بولعوالي في سطور؟

في الواقع يصعب علي تصنيف نفسي في إطار فكري أو أدبي أو أكاديمي معين، لأنني اشتغلت على مجموعة من المسائل التي تندرج في حقول معرفية متعددة، كالأدب والدين والإعلام والفكر والترجمة، ورغم أن هذه الحقول تظل محكومة بالتداخل أو الدمج بين تخصصات مختلفة Interdisciplinary، ومن ثم يمكن للإنسان أن يتنقل عبرها بنوع من السلاسة والحرية، إلا أنه على المستوى الأكاديمي هناك محددات ينضبط إليها كل حقل أو تخصص. وهكذا فإذا سمحت لأن أعرف نفسي بناءً على طبيعة اهتماماتي الذوقية والنقدية والفكرية، فيمكن لي أن أقول بأنني «أديب» لأنني كتبت بالفعل في الشعر والنثر والنقد الأدبي، ويمكن لي أن أعتبر نفسي «إعلاميا» لأنني أساهم باستمرار في الكتابة الصحافية ونظّرت من خلال أطروحة أكاديمية لتاريخ الصحافة الأمازيغية في المغرب، ويمكن لي أن أقدم نفسي بكوني «مترجما» لأنني أمارس الترجمة مهنيا، وأشتغل منذ عام لدى جامعة لوفان على موضوع: المرجعيات الكتابية في ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الهولندية، ويمكن أن أرى نفسي كـ «مفكر» لأنني أعمل على إنتاج أفكار جديدة، لا سيما حول مختلف قضايا وإشكاليات المسلمين في الغرب، كصورة الإسلام وظاهرة الإسلاموفوبيا وحوار الأديان والثقافات وفلسفة التعددية، بل وأعمل بشكل دؤوب على مناقشة هذه الأفكار والرؤى، في المدرسة والجامعة والمسجد ومؤسسات المجتمع المدني

ووسائل الإعلام، سواء في السياق الغربي الذي أعيش فيه أو في العالم العربي الإسلامي الذي أنحدر منه.

لذلك يصعب علي أن أصنف نفسي بشكل دقيق، غير أنني أميل أكثر إلى صفة «مفكر» ما دمت أؤمن بإعمال آلية التفكير في الحدود الشرعية والابستيمولوجية والمنهجية المعقولة، أخذا بأن وجود الإنسان وصيرورته وإعماره لا يستقيم إلا بالتوظيف السليم لمكون «العقل» الذي كرمه الله تعالى به دون غيره من المخلوقات، وهكذا أراني أستحضر دوما عامل التفكير، وأنا أبدع شعرا أو قصة، وأنا أترجم نصا، وأنا أحرر تقريرا صحافيا، وأنا أقوم ببحث أكاديمي، ولا أقصد هنا التفكير من حيث هو فعل عادي وتلقائي يمارسه كل إنسان في حياته، بل إعمال العقل في مسألة أو إشكالية ما للوصول إلى حلها، وهكذا يتم الانتقال من طور التصور الذهني إلى طور التحقق الواقعي، قصد الإسهام العملي والمسؤول في تناول قضايا الفرد والمجتمع والأمة.

ولدت في أول يناير ١٩٧٣، ببلدة تيسلي التي تقع في منطقة الريف الأوسط بإقليم الدريوش في المغرب، حيث نشأت وترعرعت في أسرة محافظة ومتشبثة بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف وقيمه، وتعلمت ما تيسر من القرآن الكريم في كتّاب القرية وأنا ابن الرابعة، لألتحق بعد ذلك بمدرسة القرية الابتدائية، ثم تلتها مراحل التعليم الإعدادي والثانوي وصولا إلى التعليم الجامعي العالي، الذي درست فيه اللغة العربية وآدابها. ومنذ عام ١٩٩٩ هاجرت طالبا إلى هولندا، حيث تلقيت مختلف التكوينات في اللغة والتربية والدين والفلسفة والإعلام في مدينة أمستردام، فكانت الحصيلة رسالتيْ ماجستير، إحداهما في اللغة العربية والنقد الأدبي، والأخرى في علم الإلهيات والدراسات الدينية، ثم أطروحة جامعية في علوم الصحافة والإعلام، ولا زلت أشتغل منذ زمان على مشروعين أكاديميين: أحدهما في محور الإصلاح في ضوء حوار الأديان والثقافات لدى جامعة شعيب الدكالي في الجديدة بالمغرب،

والمشروع الآخر في تكنولوجيا الترجمة حول ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الهولندية لدى جامعة لوفان في بلجيكا.

وأعمل اليوم أستاذا لمادة الدين الإسلامي في التعليم الرسمي البلجيكي، ومحاضرا في الإسلام لدى بعض المدارس العليا للتكوين التربوي، كما أنني عضو في فريق بحث تكنولوجيا الترجمة في كلية الآداب في جامعة لوفان. وقد صدرت لي مجموعة من المؤلفات والبحوث حول مختلف قضايا الإسلام والغرب والأمازيغية وفلسفة التعددية وحوار الأديان والدراسات الدينية والنقد الأدبي. أذكر منها: المسلمون في الغرب بين تناقضات الواقع وتحديات المستقبل (القاهرة، مركز الحضارة العربية ٢٠٠٦)، الإسلام والأمازيغية، نحو فهم وسطي للقضية الأمازيغية (الدار البيضاء، أفريقيا الشرق ٢٠٠٩)، الإسلاموفوبيا، صناعة إعلامية تسوق في الغرب (القاهرة، مركز الحضارة العربية ٢٠٠٩)، صورة الإسلام في المقاربة الأكاديمية الهولندية (دبي، مركز للدراسات والبحوث الاستراتيجية ٢٠١٣)، الصحافة الأمازيغية المكتوبة بين النشأة والتطور (الرباط، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية ٢٠١٥).

• كيف تلقيت نبأ فوزك بجائزة أفضل مقال في مجلة الرابطة، وكيف نشأت علاقتك مع مجلة الرابطة؟

مسألة الجوائز الأدبية والفكرية لها جوانب سلبية وأخرى إيجابية، فهي تنحدر بالكاتب إلى الحضيض عندما يسعى إليها سعيا، ويقوم بالمستحيل للظفر بها، وعوض ما يجد ويجتهد في إنتاج إبداع أو فكر أو معرفة متميزة ومفيدة، فإنه يخطط مسبقا لكتابة شيء على مقاس الشروط التي تطرحها لجان الجوائز، فيخضع إنتاجه لما هو خارجي من المؤثرات التي لا تمت بصلة إلى الكتابة والإبداع والتفكير، وهكذا نساهم في قتل عناصر الفرادة والعفوية والإيحاء والخلق في النص، فما أكثر النصوص الفائزة بالجوائز التي لا أثر لها يذكر، وما أكثر النصوص المقصية التي تظل حية وحاضرة. وفي المقابل يمكن أن ترقى الجوائز بالكاتب عندما تحكمها النزاهة، ولا يكون الهدف منها إلا تبادل الخبرات والتجارب والتنافس الشريف والمثمر.

وما يروقني في جائزة الرابطة لأفضل مقال بالفعل (مقال: حكمة الضفدع.. في عالم متعدد!) أنني لم أتقدم لها، بل ولم أسمع على الإطلاق بوجودها، لذلك فإنني أقدر هذا التكريم غير المتوقع غاية التقدير، لا سيما في زمن يعاني فيه كل من لا يحمل إيديولوجيا معينة من إقصاء ممنهج، وإن كان يقدم إنتاجا فكريا متميزا وقيما.

ولعل هذا هو الجانب الجوهري الذي جذبني لأن أساهم بانتظام في مجلة الرابطة في العامين الأخيرين، دون غيرها من المجلات التي يعج بها المشهد العربي المعاصر. ولا يمكن أن أنكر في هذا الصدد دور رئيس التحرير د. عثمان أبو زيد الذي ربما اكتشفني «بحدسه الإعلامي النادر» قبل سنوات من خلال برنامجه في راديو نداء الإسلام من مكة المكرمة. وسوف تتعزز هذه الآصرة، بالتحديد في مؤتمر مكة المكرمة السادس عشر، الذي تعرفت أثناءه عن كثب وبشكل حميمي على الأخ عثمان أولا. فوجدته من معدن أولئك الرجال القلائل الذين جمعوا بين الحسنيين: حسنى الأخلاق وحسنى المعرفة، إن صح هذا التعبير. ثم امتد التعارف إلى غيره من الإخوة العاملين في رابطة العالم الإسلامي عامة وفي مجلة الرابطة خاصة.

• لا شك أن تعاونكم مع الرابطة منحكم الفرصة للتعرف على أهدافها وأعمالها، فكيف ترون جهودها في نشر ثقافة الاعتدال والوسطية والتصدي لظاهرة الإسلاموفوبيا ؟

أقول بدون أي مزايدة أو مناقصة، إن رابطة العالم الإسلامي صارت اليوم رقما مهما على المستوى العالمي، لا يمكن الاستغناء عنه في أغلب القضايا المصيرية التي تهم المسلمين وغير المسلمين، كحوار الأديان والثقافات والتعاون الدولي ومواجهة الإرهاب والتطرف وهلم جرا. أقول هذا رغم أنني قد أختلف مع الرابطة في بعض الجوانب. دعني أولا أبدأ بجهود الرابطة الرائدة، سواء التنظيمية أو التربوية أو الإعلامية أو الدعوية، وهي جهود مكثفة منذ أن ظهرت إلى الوجود قبل أكثر من نصف قرن (مايو ١٩٦٢). وأميز هنا بين ثلاثة مستويات:

على مستوى الخطاب: ويتضمن منابر المساجد، وسائل الإعلام، الإصدارات بمختلف اللغات العالمية، الفتاوى، المؤتمرات والندوات، وغير ذلك.

على مستوى الامتداد: سواء الزماني عبر أكثر من نصف قرن، أو المكاني من خلال حضور الرابطة الفعلي في العديد من العواصم والمدن العالمية بمراكزها ومدارسها ومكتباتها.

على مستوى الإنجاز: ويتحدد فيما تحققه الرابطة من نتائج ملموسة على أرض الميدان، حيث تخرج من مدارسها ومعاهدها عشرات الآلاف من الطلبة والشيوخ، واعتنقت الإسلام على يدها أعداد غفيرة من الغربيين الأصليين، وساهمت بشكل كبير في ترسيخ الحضور الإسلامي داخل المجتمعات الغربية، وخلق نوع من التصالح بين المسلمين

والمجتمعات الغربية أو الشرقية التي أصبح المسلمون يشكلون جزءا لا يتجزأ منها.

في مقابل هذا التاريخ الحافل بالإنجازات والمبادرات لا بد من الإشارة إلى بعض النقاط التي ربما تقتضي مزيدا من التفسير أو إعادة النظر، وألخصها فيما يأتي:

• التعاطي بالعقلية «التقليدية» التي كانت سائدة إلى حدود تسعينيات القرن الماضي مع قضايا الإسلام والمسلمين في الغرب، رغم أن بنية المجتمع الإسلامي في العديد من المجتمعات الأوروبية والغربية شهدت تحولا جذريا، نشأت جراءه حاجيات وانتظارات جديدة لدى الأجيال المسلمة الصاعدة، تختلف جذريا عما كانت عليه أجيال الهجرة الأولى، وهذا ما يستدعي إعادة النظر في الآليات القديمة التي يجب إما أن تستبدل أو تجدد أو تكيف.

• إعادة النظر لا تعني اليوم القيام بحفنة من التقارير الصحافية السطحية أو المقالات الإنشائية، بل الاشتغال العلمي الواقعي على القضايا المستجدة في واقع المسلمين في العالم الغربي، من قبل باحثين أكاديميين وخبراء متخصصين، ولا أعرف ما إذا كانت الرابطة اليوم قد فكرت في إنشاء مراكز بحث علمية أو كراسي أو وحدات علمية تنكب على مجموعة من القضايا الجديدة (الإسلاموفوبيا، التطرف، الإرهاب، الامتداد الشيعي، اليمين المتطرف، إلخ)، وهل فكرت أيضا في ربط علاقات أكاديمية مع جامعات غربية والتعاون معها في الاشتغال على مختلف قضايا الإسلام والمسلمين في الغرب، من خلال تنظيم المؤتمرات والندوات العلمية وتمويل المشاريع البحثية وإنشاء الكراسي العلمية.

• الانفتاح على الكفاءات العلمية المسلمة الصاعدة التي تغطي أغلب الحقول العلمية والمعرفية والتكنولوجية، لا الاقتصار على بعض الأسماء القديمة التي لا شأن لها إلا احتكار الساحة وتهميش الكفاءات الجادة والنوعية.

• إعادة النظر في علاقة الرابطة من خلال مراكزها في

أوروبا والغرب مع بعض الشخصيات التقليدية التي تدعي تمثيل الإسلام والمسلمين، في حين أن شغلها الشاغل هو الحفاظ على مصالحها الشخصية، والاغتناء الفاحش من خلال المتاجرة بقضايا الإسلام والمسلمين، ثم إن أغلب هذه الشخصيات لم يعد لها أي تأثير حقيقي أو سمعة طيبة بين أوساط المسلمين.

هذه بعض الأمور التي يقتضي إعادة النظر فيها من قبل الرابطة، وذلك قصد تعزيز مكانتها المعهودة أكثر، عن طريق الانفتاح على الأجيال الصاعدة التي سوف تحل بالتدريج محل أجيال الهجرة الأولى.

• برزت لديكم نظرة عبر مقالاتكم أن الغربيين ينبغي عدم تصنيفهم وفق رؤية واحدة في موقفهم من المسلمين، فهناك غرب حضاري وغرب سياسي ولا يخلو من المنصفين. فهل توضحون مسكورين هذه النظرة؟

يقال إن التعميم من العمى أو التعمية، وأي نص أو مقال أو بحث يهيمن فيه حكم التعميم يفقد موضوعيته، وهكذا يصبح لا علميا، أو بالأحرى غير موثوق فيه، لأنه يفتقر إلى الدقة والضبط والمصداقية والواقعية. ولم تتبلور عندي هذه الرؤية إلا بعد أن عشت في الغرب سنوات طويلة، وتلقيت مختلف التكوينات والتدريبات، وانخرطت في مختلف المجالات والأعمال والأنشطة. ما جعلني أكتشف أن ثمة غربا آخر غير الغرب السياسي المهيمن الذي تعرفنا عليه في المدرسة والشارع والإعلام، وهو ما يطلق عليه الغرب الإنساني والحضاري. فإذا كان الغرب الأول أنتج لنا الحروب الصليبية والحركة الإمبريالية والاستعمارية والصهيونية وظاهرة الإسلاموفوبيا وحركات اليمين المتطرف والنازية الجديدة والقنبلة الذرية، فإن الغرب الثاني أنتج لنا فلسفة الأنوار ومواثيق حقوق الإنسان واعترف بفضل الحضارة الإسلامية وطور علوم الطبيعة والإنسان والاجتماع والتكنولوجيا، واستقبل المهاجرين واللاجئين، وأنشأ الجامعات والمعاهد ومراكز البحث. وهذا يدل على أن

الغرب، مثل العالم الإسلامي بالضبط، ليس كتلة واحدة متجانسة، بل متعدد تاريخيا وجغرافيا وبشريا وثقافيا، ما ترتب عنه أيضا اختلاف نظرة الغرب إلى الإسلام وإلى الآخر، فنظرة هانس كونغ وناعوم تشومسكي وكونينس فيلد وكارن أرمسترونغ المتسامحة تختلف جذريا عن نظرة صموئيل هانتينغتون وبرنارد لويس وأوريانا فلاشي وخيرت فيلدرس المناوئة لكل ما هو إسلامي.

فما أحوج أولئك المفكرين الغربيين الحكماء الذين أنصفوا الإسلام حقا إلى إنصافنا لهم نحن المسلمين، وقد ردّدت هذا الكلام طويلا، ودعوت إلى إنشاء مؤسسة مدعومة رسميا لجمع تراث هؤلاء وترجمته وتعميمه على الأجيال الصاعدة، وآمل أن تلقى هذه الدعوة الصادقة تجاوبا حقيقيا، لا سيما لدى رابطة العالم الإسلامي وغيرها من المؤسسات التي تهتم بأوضاع المسلمين في الغرب. وأعتقد أن هؤلاء اليوم يوجدون في وضعية «المؤلفة قلوبهم»، إلا أن هناك فرقا دقيقا تجدر الإشارة إليه هنا، مؤداه أنه إذا كانت فئة «المؤلفة قلوبهم» المتعارف عليه في الفقه الإسلامي تحتاج إلى الدعم المادي، فإن هذه الفئة الجديدة من المؤلفة قلوبهم تقتضي منا الدعم المعنوي والاعتراف بجهودها العلمية القيمة.

• رصدنا لكم مساهمات أدبية مثل فوزكم بالجائزة الأولى الخاصة بالشعر العربي التي نظمتها جمعية الهجرة للثقافة والفن بأمستردام؟

في الحقيقة، كانت بدايتي عندما كنت تلميذا في المرحلة الثانوية وطالبا في الجامعة شعرية وأدبية بامتياز، إذ كتبت العديد من القصائد الشعرية باللغتين العربية والأمازيغية، وقد جمعتها في أربعة دواوين مخطوطة، سوف يصدر أحدها المعنون بـ: في مهب اليتم في القريب العاجل عن منشورات الموكب الأدبي في بوجدة، في دورته القادمة. وفضلا عن ذلك، فإنني ألفت جملة من البحوث والدراسات النقدية، اشتغلت فيها على بعض القضايا الأدبية والشعرية والسردية، وقد صدرت لي دراسة في هذا الباب عام ٢٠١٣ عن دار الثقافة والمعرفة في الشارقة تحت عنوان: الشعر العربي ثنائية المعيار والانزياح. وفيما يتعلق بالجائزة التي أشرتم إليها منحتني إياها جمعية الهجرة في هولندا عن إحدى قصائدي العربية التي فازت عام ٢٠٠٥ بالجائزة الأولى في صنف الشعر العربي، وترجمت إلى اللغة الهولندية، وصدرت في كتاب جماعي خاص بتلك الجائزة الأدبية.

• نبارك نشاطكم الثقافي والعلمي الكثيف هذا في كل من بلجيكا وهولندا، ولعل المرء يتساءل كيف استطعتم التوفيق بين مهام مختلفة أكاديمية وإعلامية واجتماعية؟ وهل لوجودكم في الغرب أثر في تنوع هذا النشاط؟

أود أن أشير هنا إلى مسألة مهمة، وهي أنه في بداية استقراري في مدينة أمستردام بهولندا في غشت ١٩٩٩، كنت يومها لا أزال شغوفا بالشعر والسرد قراءة وكتابة إلى حد الهوس، لكن بعدما بدأت أحتك بالواقع الجديد، وأقترب من حياة المهاجرين العرب والمسلمين، وأكتشف حقيقة الغرب عن كثب، أدركت أن ثمة إشكاليات عويصة وشائكة تعتري واقع المسلمين في هولندا، تحتاج إلى تعاطٍ مباشر وملموس وعملي، لا يمكن تحقيقه بلغة الشعر الغارقة في الإيحاء والمجاز والاستعارة، وهذا لا يحمل أي تنقيص من قيمة الشعر والإبداع، بل إن الظروف الجديدة تلحّ على الإنسان المثقف أن يتكيف مع السياق، ويحاول ما أمكن أن يستوعب الأسئلة والتحديات المطروحة، إذا كان يطمح حقا إلى أن يخلق له حيزا ما في المجتمع الجديد الذي اختار الاستقرار فيه. ولعل ما رسَّخ عندي هذه القناعة أكثر، هو أنني وجدت نفسي بين عشية وضحاها أمام مفارقة غريبة، وهي أنني أعيش في إحدى أجمل مدن العالم طبيعة وتاريخا وتراثا وثقافة، وهذا ما يحلم به كل متعطش للسياحة والاطلاع على ما هو جديد، لكن في الوقت ذاته كان علي أن أرتب أموري المادية والقانونية والدراسية، فاضطررت، (كأي مهاجر جنوبي فقير!) منذ أن وطئت قدماي الغرب إلى أن أعمل وأدرس وأسوي سكني ووضعيتي القانونية وأساعد عائلتي في المغرب، ما جعلني أنخرط مباشرة في مختلف المشكلات التي يتخبط فيها المجتمع المسلم في أوروبا عامة، وفي هولندا بوجه خاص. فكان أن تراجع لدي الاهتمام بقضايا الشعر والسرد والنقد، ليس لأنني لا أحب هذا الحقل المعرفي الجميل، بل لأن ثمة أولوية أكبر كانت تشغل بالي منذ أول عهدي بالهجرة، وتتجسد في وضعية الشريحة المسلمة التي كانت تواجه تناقضات داخلية وتحديات خارجية، عبرت عن الكثير منها في باكورة أعمالي الفكرية، وهو كتابي المسلمون في الغرب بين تناقضات الواقع وتحديات المستقبل، الذي صدر عام ٢٠٠٥ في القاهرة، وأعيد طبعه في المغرب عام ٢٠٠٩.

وهكذا استخلصت أن الهوية الإسلامية صارت تتعرض في الغرب لحملة مزدوجة؛ إما من بعض المسلمين أنفسهم الذين يسيؤون إلى الإسلام من خلال سلوكياتهم الشاذة والفاسدة من جهة، وتأويلاتهم المنحرفة التي لا تتأسس على مصادر الفقه والتشريع الإسلامية الأصلية ولا تكترث باجتهادات علماء الأمة القدامى والمعاصرين من جهة أخرى، وإما من بعض التيارات الغربية المناوئة لكل ما هو إسلامي وأجنبي، كأحزاب اليمين المتطرف وحركات النازية الجديدة واللا دينيين والمثليين وغيرها.

في خضم هذه الملابسات الجديدة سعيت جاهدا لأن أشارك بسهمي في الذود عن الدين الإسلامي الحنيف، من خلال الكشف عن صورته الحقيقية المحجوبة عن المواطن الغربي العادي، والمطموسة في الدراسات الاستشراقية التقليدية، والمشوهة في وسائل الإعلام المؤدلجة. فاقتضى مني هذا التحدي غير الهين أن أطرق أبواب مختلف التخصصات العلمية، كالإعلام الذي استمددت منه مختلف الآليات والميكانيزمات والمهارات التي أسعفتني في التعمق في طبيعة الصورة النمطية المروجة حول الإسلام والمسلمين، كعلم اللاهوت الذي مكنني من دراسة الأديان والعقائد الفلسفية الأخرى، كاليهودية والمسيحية والهندوسية والبوذية والتيارات اللادينية، وغير ذلك. والدراسات الدينية التي جعلتني أقوم بمراجعة شمولية ومنهجية لأغلب العلوم الإسلامية التقليدية، كعلوم القرآن والحديث وأصول الفقه والتفسير والكلام والفلسفة الإسلامية والتصوف وغيرها. أما تكنولوجيا الترجمة فقد مكنتني من الانفتاح على اللغات الأخرى والتعمق في بنياتها الثقافية والتاريخية والتأصيلية، دون أن أغفل الاشتغال على الفكر الإسلامي والغربي الحداثي والمعاصر، لا سيما نظريات فلسفة التعددية وحوار الأديان والثقافات، ما فتح لي آفاقا جديدة تعرفت من خلالها على شتى التنظيرات الغربية القديمة والحديثة والراهنة للإسلام، وقد تناولت جانبا من هذا في كتابي صورة الإسلام في المقاربة الأكاديمية الهولندية، الذي أصدره مركز الإمارات للدراسات الاستراتيجية عام ٢٠١٤، بالإضافة إلى مشاريع فكرية معمقة في طريق الإنجاز.

• ما هو تقييمكم للحركة الأدبية وسط المهاجرين العرب في أوروبا؟

أولا لم يعد مصطلح المهاجرين العرب أو المسلمين معتمدا لا قانونيا ولا أكاديميا ولا واقعيا، لأننا الآن أمام أجيال مسلمة صاعدة ولدت وترعرعت وتربت في الغرب، وأجيال الهجرة الأولى التي هاجر معظمها منذ ستينيات القرن الماضي وغيرها قبل ذلك بكثير، هي الآن على وشك التلاشي والانقراض، بالإضافة إلى شريحة المسلمين الجدد التي تعدّ بعشرات الآلاف، وهذا ما يعني أننا الآن أمام واقع إسلامي جديد يختلف بنيويا وديمغرافيا ووظيفيا عما كانت عليه

الوضعية إلى حدود بداية تسعينيات القرن الماضي، لذلك شدّدت في أكثر من مناسبة على اعتماد مقاربة جديدة ومغايرة، تأخذ بعين الاعتبار التحولات التي طرأت على واقع المسلمين في الغرب، الذي لم يعد واقع هجرة عمالية أو لجوء مؤقت، بل واقع مواطنة قانونية وانتماء بالولادة. وقد مكنت هذه الوضعية الجديدة الأجيال المسلمة الصاعدة من الاندماج الإيجابي في المجتمعات الغربية التي تحضنهم، وظهرت في زمن قياسي كفاءات مسلمة متنوعة تحضر في مختلف المجالات التربوية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والإعلامية والأكاديمية، ولم يكن مجال الأدب والإبداع بعيدا عن هذا الازدهار اللافت الذي بدأ يتعزز به واقع المسلمين في الغرب، بفضل الأجيال الصاعدة والمسلمين الجدد. بل يمكن الحديث بلا شك عن حركة أدبية وإبداعية مهمة بين أوساط الشرائح المسلمة، تغطي مختلف الحقول والأنواع الأدبية والفنية، من شعر وقصة ورواية ونقد ومسرح وسينما وترجمة أدبية.

• نسأل عن هذا بالتحديد لما تعلم من وجود أدب خاص للمهاجرين والمهجرين، مثل آداب الشوام في أمريكا اللاتينية وفي الولايات المتحدة، وكذلك أدب الأمريكيين من أصول إفريقية، فلماذا لم نجد أدباً عربياً في أوروبا؟

لا أحد ينكر وجود أدب عربي في أوروبا، ربما يعود هذا الحكم غير الواقعي إلى عدم مواكبة النقد الأدبي العربي للحركة الأدبية العربية في أوروبا. وأميز شخصيا بين نمطين من الإسهام والعطاء في هذه الحركة الأدبية العربية، لا سيما لدى المسلمين من شمال إفريقيا والشرق العربي، أحدهما مكتوب بالدرجة الأولى باللغة العربية (دون إغفال الأمازيغية والكردية)، والنمط الآخر مكتوب بلغات بلدان الإقامة كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والهولندية وغيرها، وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى بعض الأسماء المتميزة على الصعيدين الهولندي والبلجيكي، كمصطفى ستيتو، وحفيظ بوعزة، وعبد القادر بنعلي، وطه عدنان، ومصطفى الحمداوي، ونعيمة البزاز، وعبد الرحمن السليمان، ومحمد بنزكور، وزهرة زيراوي، وأحمد حضراوي، وإدريس يزيدي، وسعيد زروالي، وغيرهم كثير.

• بحكم دراستكم في أوروبا، هل تنصحون الشباب بالابتعاث ونيل الدراسة الجامعية هنالك؟ وما الإيجابي والسلبي في تلقي العلم بالغرب؟

إذا قلت إن البون شاسع بين الجامعة الغربية والجامعة العربية فأنا لا أبالغ في هذا الحكم، بل وإن الهوة بينهما تتسع بشكل مطرد مع مرور الأيام، وهناك العديد من الإحصائيات والأرقام والتصنيفات الموثوقة التي تثبت التأخر الكبير للتعليم الجامعي في العالم العربي. ولعل هذه المقارنة تحيل على العصور الذهبية للحضارة الإسلامية حيث كان الأوروبيون يهاجرون من مختلف البلدان الأوروبية للدراسة في حواضر الأندلس العلمية، كطليطلة وإشبيلية وغرناطة وقرطبة وغيرها، ويتباهون بأنهم تلقوا العلوم والمعارف على شيوخ وأساتذة مسلمين، بالضبط كما يشعر الآن الكثير من الطلبة العرب الذين يدرسون في الجامعات الغربية العريقة. وهو شعور عادة ما يؤوله البعض بالانبهار والدونية والتبعية، وأرى شخصيا أن هذا الحكم غير عادل، لأن أغلب الذين هاجروا للدراسة في الغرب، كان ذلك بدوافع موضوعية، أذكر منها: دراسة تخصصات دقيقة في الطب والهندسة والتكنولوجيا وغيرها، لا تتوفر في الجامعات العربية، وإن توفرت في بعضها فغالبا ما تكون هزيلة! وتعلم لغات أجنبية لا يمكن التمكن منها إلا من خلال الاحتكاك المباشر بالمجتمع الذي يتكلمها. ثم لا مناص من الإشارة إلى تفوق التعليم الغربي في العديد من الجوانب، كسلاسة التسيير، وانفتاح الإدارة، واستقطاب الطلاب وتحفيزهم، والعلاقة بين الطلاب والأساتذة، وغنى المناهج التعليمية، ومواكبة التحولات السوسيو- ثقافية والسياسية والاقتصادية والتكنولوجية. وحتى أكون واقعيا بعض الشيء أود أن أوضح هنا أنني عندما كنت أتابع دراستي العليا في أمستردام، اكتشفت أن جهد السنة الدراسية الواحدة؛ منهجا ومحتوى وبحثا وتدريبات قد يضاهي مرحلة الإجازة أو البكالوريوس كلها في الكثير من البلدان العربية.

لذلك فإنني أحفز كل من تتوفر له الإمكانيات اللازمة على السفر شرقا أو غربا لطلب العلم والاستفادة مما حققته الأمم الأخرى من مكاسب عظيمة في مختلف حقول المعرفة والعلم والفكر والتكنولوجيا، لا سيما وأننا اليوم في أمس الحاجة إلى كفاءات متمكنة تساهم في النهوض الحضاري بمجتمعاتنا المتقهقرة. وفي الوقت ذاته، أعاتب على بعض الدعاة قولهم بأن المقصود في الحديث الصحيح الذي يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، هو طلب «العلم الشرعي»، وهم لا يدركون أن العلاقة بين مختلف العلوم متقاطعة، وفي أحيان كثيرة متكاملة، فلولا التطور الهائل الذي يشهده ميدان الطباعة

وصناعة الكتاب، وهو ميدان مادي (دنيوي) محض، لما تمكنا من طباعة القرآن الكريم بشكل أجمل وأسرع، ونشره على نطاق أوسع، ولولا تكنولوجيا المعلومات والثورة الرقمية لما بلغت الدعوة الإسلامية أوجها، ولولا ازدهار صناعة الطيران وغيرها من المواصلات لما تمكن ملايين المسلمين من ممارسة شعيرة الحج، وهكذا دواليك.

• انعقدت ندوة الأقليات المسلمة في رمضان الماضي بمقر الرابطة، وكان هناك تركيز على موضوع فقه يناسب واقع المسلمين في تلك البلاد، إلى أي حد تجدون ذلك في هولندة وبلجيكا؟

في اعتقادي الشخصي، إن مثل هذه المبادرات تستحق التثمين والتقدير، ولعل الرابطة لها قصب السبق في هذا الباب، ولا أحد ينكر ما تقدمه من إنجازات رائدة، غير أنه كما أشرت آنفا قد أزف الوقت لأن تترجم هذه المكاسب أكثر إلى أفعال ملموسة وعملية تأخذ بعين الاعتبار التحولات الجذرية التي يشهدها المجتمع الإسلامي في الغرب، وتنفتح على الكفاءات الصاعدة التي نادرا ما يتم إشراكها في هذه المبادرات الموجهة إليها بالدرجة الأولى، فهل يُعقل مثلا أن يصوغ فقه المسلمين في الغرب فقهاء لا يعرفون ذلك الواقع حق المعرفة، ولا يتقنون لغته، ولا يدركون شروطه؟ وهذا لا يعني التقليل من قيمة فقهائنا الأجلاء، بل الدعوة إلى إشراك الكفاءات المسلمة من مختلف المجالات الدينية والاجتماعية والتربوية والأكاديمية، لا سيما وأنها تشكل طرفا جوهريا في هذه المسألة.

وهذا إن دل على شيء، فإنه يدل على أن الحاجة إلى فقه يناسب واقع المسلمين في الغرب أصبحت ضرورية وملحة، لا سيما أمام ظهور نوازل جديدة نابعة من هذا الواقع، ولا يمكن حلها عن طريق إسقاط واعتماد حالات مختلفة عنها جملة وتفصيلا، كما يصنع بعض الدعاة المعاصرين الذين لا يراعون عوامل الزمان والمكان التي تؤثر بشكل أو بآخر في اجتهاد العلماء وتعاملهم مع ما استجد من أمور وقضايا، كما حصل بالضبط للإمام الشافعي عندما انتقل من العراق إلى مصر، وأدرك الفرق الكائن بين هذين السياقين، فأخذ ذلك بعين الاعتبار في اجتهاداته الفقهية. وقبله بحوالي قرنين من الزمن أرسى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه اللبنات الأولى لما يطلق عليه اليوم فقه الواقع، عندما راعى في موافقاته واجتهاداته المتنوعة ظروف الناس والمجتمع، كأداء صلاة التراويح، وتعليق حد السرقة في زمن المجاعة، واستتابة المرتد، ورفض تقسيم الأراضي المفتوحة، وغير كثير. وعندما نتأمل الخطاب الذي يتبناه بعض الدعاة المعاصرين في ضوء هذه الاجتهادات القديمة والمبكرة، ندرك أن عمر بن الخطاب والشافعي وغيرهما من الفقهاء القدامى أكثر معاصرة لنا من بعض أولئك الدعاة الذين يعيشون بين ظهرانينا!

• لاحظنا وجود شباب نشأ في أوروبا ضمن العناصر الإرهابية، إلى أي شيء تعزون وجود هذه الظاهرة؟

ظاهرة الإرهاب لا سيما عند بعض الشباب المسلم أصبحت تتخذ اليوم طابعا إشكاليا، تتداخل فيه شتى العوامل الذاتية والموضوعية، الداخلية والخارجية، التأويلية والإيديولوجية. لذلك فإن استيعاب ماهيتها وحقيقتها لا يتحقق إلا بتناول كل هذه العوامل والأبعاد والمستويات، وقد اشتغلت على هذه المسألة في أكثر من مناسبة وبحث، وأكتفي بالإشارة هنا إلى دراستي المعنونة بـ: أدلجة الدين وعولمة الخوف: الظاهرة الداعشية أنموذجا، التي نشرتها عام ٢٠١٥، ومما جاء فيها «أن الظاهرة الداعشية التي نحاول جاهدين تفكيك خيوطها المتشابكة، وفهم طلاسمها المستعصية، ومن ثم إماطة اللثام عن حقيقة صانعها المجهول، لا ينبغي أن نختزلها في حركة داعش فحسب، ونكتفي كالعادة بأن نقول بأنها «رافضية» أو «خارجية» أو «متصهينة» أو غير ذلك، قصد تبرئة ذمتنا مما يحدث، واعتبار أنفسنا الفرقة الأفضل أو الفرقة الناجية، ثم نمضي إلى حال سبيلنا، وكأننا أدّينا ما علينا من مسؤولية تجاه الخالق والإنسان والمجتمع، ونحن نجهل أو نتجاهل بأن الظاهرة الداعشية أكبر من حركة داعش، وأنها تتجذر في قرارة نفوسنا الجشعة، ويحملها كل واحد منا بين جوانحه وجوارحه الجامحة، عندما يدعي الحقيقة المطلقة، وعندما يقصي كل من يختلف عنه دينيا وثقافيا وإثنيا، وعندما يعامل غيره بعنصرية نتنة وتمييز ممقوت، وعندما يتطرف لصالح رأيه ومذهبه. لذلك لا داعي للتحليق بعيدا ونحن نقتفي أثر من صنع داعش، إذ يكفي النظر في أحوالنا الرديئة وأفعالنا الدنيئة لندرك أن السبب الذي يقف وراء نشوء داعش يتأصل فينا جميعا، فلا حاجة إلى مشجب نعلق عليه اتهاماتنا للآخر بتهديد وجودنا وهويتنا وعقيدتنا، ونحن ما نفتأ نهدم كياننا الذاتي بمعول النرجسية والإقصاء والتعصب والطائفية، حتى صار كل واحد منا بمثابة داعشي مستبد لا يؤمن إلا برأيه، فأما آراء الآخرين فإلى الجحيم!».